في الأدب الغربي

قصـــــة فيلسوف عاشق

للدكتور طه حسين

٢

واتصلت زيارة أغوست كرنت لأسرة كلوتيلد ، واشتدت الصلة بينه وبينها متانة وقوة ؛ وأخذت تزول من هذه الصلة بقايا هذه التكاليف الاجتماعية التي تواضع الناس عليها في حياتهم المألوفة ، والتي لا يزيلها ولا يمحوها إلا المودة الخالصة اذا بلغت أقصاها . أو الحب الصحيح اذا انتهى الى غايته . وألحت الأسرة في التعريض بهذه الزيارات المتصلة ، وبهذه الصلات التي كانت تتخلص شيئاً فشيئاً من التكلف والاحتشام . ورعت الفتاة نفسها وقتاً طويلا في أن تتحدث الى الفيلسوف بهذه الريبة التي أخذت تثور حولها في نفوس الأسرة ؛ ولكنها انتهت الى أن أنبأته بما عندها من ذلك فاستمع لها . ولم يحتج الى تفكير وتقدير ليملأ قلبه سروراً وغبطة ، وليأخذه شيء من الكبرياء غريب في ظاهر الأمر . ولكنه مألوف عند العشاق والمحبين . وماله لا يسر ولا يغتبط والحب ترفع كل يوم بينه وبين من يهوى ؟ وماله لا يأخذه الكبر ولا يملأه التيه وهو يثير الريبة في نفوس الأسرة . ويضطرهم الى أن يشعروا بحبه للفتاة وبأن الفتاة لا تزدريه ولا تفرط في ذاته . ولا تنظر اليه في غير عناية ولا اكتراث . لعلها لا تحبه كما يحبها ولكن في قلبها عاطفة ما تعطفها عليه وتدفعها اليه . ومن يدري ؟ لعل هذه العاطفة أن تنمو وتقوى وتخضع لما يخضع له الانسان بملكاته وعواطفه من التطور . فتستحيل من المودة الخالصة الى الحب العنيف . وإذاً فماله لا يستأنف سعيه وإلحاحه ؟ وما له لا يدور حول قلب الفتاة لعله يجد سبيلا للوغه والوصول اليه . وقد فعل . فهذا الحنان الذي كان قد كظمه في نفسه أو أسبغ عليه لوناً من الجد يجعله الى الود أقرب منه الى الحب ، قد أخذ يتجرد من ثوبه المتكلف ويظهر على حقيقته وفي صورته الصحيحة ، وقوته التي لا تبقى على شيء . وهذا التحفظ الذي كان اصطنعه في الحديث يزول شيئاً فشيئاً . واذا هو صريح ، وإذا هو يجدد اعلان الحب ، ويكرر هذا الاعلان ويحيط الفتاة بشباك من الطلب والأمل والتضرع والاستعطاف والاغراء الذي يتجه الى العقل حيناً والى الشعور حيناً آخر . وكيف تريد أن تفلت الفتاة من هذه الشباك جميعاً وهي لا تكاد تخلص من واحدة حتى تعثر في أخرى . هي مضطرة إذاً الى أن تسالم بعض الشيء وتصانع الى حد ما ، وتهزم عن خط الدفاع الأول كما يقولون .

وهل كانت هي في نفسها منصرفة عن الفيلسوف حقاً راغبة عن حبه كل الرغبة ؟ لست أدري ولكنها على كل حال عجزت عن المقاومة فكتبت الى أغوست كرنت تنبئه بهذا العجز وتظهره على ذات نفسها وتبين له رأيها في التخلص من هذا الموقف الدقيق ورأيها انها لم تكن تقدر أن أحداً يكلف بها ويتهالك عليها ، وانها هي لا تكلف بأحد ولا تتهالك على أحد ، ولكن أملها إن صح أن يكون لها أمل في الحياة ، إنما هو طفل تقف عليه حبها وحنانها وقوتها ونشاطها . وهي إذا شاركت رجلا في الحياة فانما قوام هذه الشركة الوصول إلى تحقيق هذا الأمل . وهي حريصة كل الحرص على أن يكون شريكها ان ظفرت به رجلا ممتازا مرتفع النفس كبير القلب خليقا بالاكبار . وهي تجد هذه الخصال كلها في الفيلسوف ولا تكره أن تتخذه شريكا في تحقيق هذا الأمل وخلق هذه الطفل . ولكنها لا تريد أن تخدعه ولا أن تغره فهي لا تحبه بالمعنى المألوف لهذه الكلمة وحياتها ليست بالشيء النفيس

الذي يحرص الناس على الاشتراك فيه . فهي بائسة تحتاج الى من يعزيها وهي فقيرة تحتاج إلى من يعولها . وهي لا تحمل لشريكها الا مودة صادقة وإخلاصا لاحد له .

ويقرأ الفيلسوف هذا الكتاب فيجن جنونه وتدور به الأرض ثم تهدأ نفسه . وتشرق في وجهه الدنيا وتبتسم له الأيام وهل كان يطمع في أن تقبل كل تيلد منه مثل هذا وترضى أن تكون له خليلة وتقاسمه الحياة وتشاركه في خلق إنسان؟ وهو قابل اذا وهو راضي وهو سعيد وهو واثق بأن هذه خطوة ستتبعها خطوات وهو يكتب اليها ويمضي كتابه على هذا النحو : زوجك المخلص أجوست كونت .

وتزوره ذات يوم زيارة المستقلة المستعدة للوفاء بالوعد وإنفاذ هذه الشركة ، فيلقاها فرحاً مبتهجا ثم يجلسها ويجثو بين يديها ويقدم اليها صلاة فلسفية حارة . ولكنه عالم لاحظ له من براعة الأدباء ولا من براعة الرجال الذين تعودا عشرة النساء والتلطف لقلوبهن ، فصلاته فلسفية وحديثه بعد ذلك عملي كله وحركاته حين يضطرب في غرفته منظمة قد قدرت تقديراً . فهو لا يرفع شيئاً إلا بحساب ولا يضع شيئاً إلا على نظام ولا يأتي حركة إلا إذا كانت لها علة ظاهرة وتأويل معقول وهو يتحدث عن دخله وعما سيحتاجان اليه من نفقه وعن ترتيب البيت وعن النظام المادي للحياة . وهو على هذا كله دميم لا جمال في شكله ولا روعة ، قصير متقدم البطن مضطرب الوجه . فاين يقع هذا المنظر ؟ وأين يقع هذا الحديث ؟ وأين تقع هذه الحركات المنظمة من قلب امرأة لم تتجاوز الثلاثين بعد ؟ ما أسرع ماضاقت بهذه الشركة ورغبت عنها ؛ وما أسرع ماضحكت من نفسها في نفسها ، وما أسرع ما استيقنت انها كانت تحاول أمراً لا قبل لها به ولا قدرة لها عليه . وما أسرع ما نهضت وهي تقول : لقد تقدم الوقت دعني أكتب اليك . وما أسرع ما خرجت من الباب وهبطت السلم وبلغت الشارع ومضت . والفيلسوف ينظر اليها من النافذة . فاذا هي تسرع أمامها لا تلتفت ولا تلوي على شيء وتكتب الى الفيلسوف بعد ذلك معتذرة متعللة قائلة إنها قد تعجلت الوعد وتبين لها أنها في حاجة إلى التفكير الطويل وأن الخير في أن تمهل نفسها لترى .

فلا يكاد الكتاب يصل إلى الفيلسوف حتى يحس أنه قد أذاها بحديثه فيكتب اليها مترفقاً ملحاً . وتمضي هي في أبائها . ويشتد هو في الحاحه حتى اذا أثقل عليها اجابته في شيء من الشدة والصرامة أنها لا تستطيع أن تبيع نفسها ولا أن تساوم فيها فان كان يقنعك ما أعرضه عليك من المودة الخالصة الطاهرة فذاك ولك أن تلقاني في بيت أسرتي كما أبيك من قبل ولا بد لي من ستة أشهر أفكر فيها وأروي وإلا فاني عائدة إلى ما كنت فيه من وحدة وعزلة . هنا يضيق الفيلسوف من ذلك السكر الذي كان قد غمره وملأ عليه قلبه وعقله . ويعود إلى حاله الأولى ليس شديد الرجاء ولكنه ليس يائسا بل هو بعيد كل البعد من اليأس واثق بأن العاقبة له وبأن الفوز لن يخطئه مهما يكن من شيء ، سيصبر اذا وسيستأنف حياته الأولى ويلقى الفتاة في بيت أسرتها مرتين في الأسبوع .

وكلاهما سيء الحال ضيق ذات اليد . اما هي فتبحث عن عمل تعيش منه او تترفه به بعض الشيء حياتها الضيقة الخشنة . وهي لا تتردد في أن تشغل مكان السكرتير في مكتب من المكاتب او عند رجل ذي مال ان ظفرت به . ولكنها لا لا تظفر بشيء ولا باحد إلا فيلسوفها الذي قد وثقت به واطمئنت اليه . فهي لا تخفي عليه من أمرها شيئا وهو يعدها بالمعونة ويعرض عليها ان يقرضها ما تحتاج اليه . بل يؤكد لها أن كل ما يملك من المال ملك خالص لها تستطيع أن تأمر فيه ما تشاء . نعم ولكنه هو لا يملك شيئا أو لا يكاد يملك شيئا ، اعباله شاقة ونفقاته ثقال والمستقبل أمامه مظلم . هو يلقي دروساً رياضية في بعض المدارس الحرة ولكن صاحب المدرسة يريد أن يلغي هذه الدروس رغبة في الاقتصاد . وهو يكسب شيئا من مدرسة الهندسة ولكنه في حاجة الى أضعاف هذا الذي يكسبه . وهو يلح على تلاميذه في انجلترا أن يرتبوا له رزقا معلوما ، ولكن التلاميذ لا يؤمنون لأستاذهم بهذا الحق وهو مضطر الى أن يرزق أمرأته ثلاثة آلاف فرنك في كل عام ، ولا بد له من أن ينقص هذا الرزق وأن يختزل منه ذلك .

وهو على هذا كله يعمل ، وهو على هذا كله يحب وهو حريص على ألا يقصر في ذات فلسفته ولا في ذات عشيقته . وعشيقته

أيضا تعمل لخدمة الأدب أن أعجزها ان تعمل لكسب المال. لقد نجحت قصتها الأولى بعض الشيء فالهالا تكتب قصة أخرى وقد بدأت كتابة هذه القصة وأخذت نفسها لها موضوعا مما شيء من الرمز والايماء وأخذت كلما كتبت شيئا أرسلته إلى الفيلسوف، فيقرأ ويعجب ويهيم. ويقرظ ويسرف في التقريظ

ويستأنف زيارته للاسرة محتملا ما يرى من الأعراض يقابله عنه في كثير من الأحيان. حتى اذا كتب أخو الفتاة رسالة في الرياضة وعرضها على أستاذه ونظر الأستاذ فيها وأطال النظر لم تعجبه. فيضطر إلى أن يعلن رأيه الى تلميذه في غير تردد والى أن يتحدث الى الفتاة بأن حبه لها وحرصه على مودة أخيها ان يمنعاه من أن يعلن رأيه في هذا الكتاب الذي لا خطر له. هنالك يزداد سخط التلميذ على أستاذه وهذا هو الذي يدور حول أخته ويشرب القهوة في البيت مرتين في كل أسبوع، ثم لا يشجع تلاميذه ولا يعترف لهم بما يوفقون اليه من نجاح.

ويشتد إنكار الأسرة على الفتاة وتثبت هي لانكارهم، فتجادلهم في أستاذها وتزودهم عنه، وتخرج من عندهم مكدودة متعبة وتتوارى إلى بيتها وقد فقدت أو كادت تفقد الشجاعة والنشاط. فتفكر في الفيلسوف، وفي أنه الرجل الوحيد الذي يؤثرها بالحب. ويصفيها المودة والعطف. فتنازعها نفسها اليه. ولكن نفوراً قوياً يمسكها أن تندفع في هذا الحب. فتكتفي بالشكوى. وتقبل من الفيلسوف عطفه وحنانه، ومعونته المالية أيضاً. وكانت أعراض الضعف قد ظهرت عليها، فأخذت تحس فتوراً واعتلالا. وأخذت تقاوم سعالا متكرراً مضنياً ولم تقدر إلا أن ماتحسه عرض من أعراض هذا الجهد الذي تلقاه. صبرت واحتملت وجدت في كتابة قصتها، وجدت أيضاً في الأنس إلى الأستاذ وأذنت له أن يزورها في بيتها الخاص. فأحيت أمله، وبالغت في إحياء هذا الأمل حين أهدت إلى الأستاذ باقة من الزهر الصناعي صنعتها يدها، وأرسلت معها أبياتاً من الشعر لا قيمة لها، ولكن الفيلسوف رأها آية من آيات البيان.

وزارها الفيلسوف ذات يوم فاذا هي متعبة تلقى من الآلام جهداً شديداً فتحدث اليها وأطال الحديث واطمئنت هي اليه إطمئناناً شديداً، فلما نهض لينصرف اختلس قبلة من فمها، ولكنه لم يكد يبلغ بيته حتى كتب اليها كتاباً مشهوراً يعتذر فيه من هذه القبلة، لأنه لم يكن يثق حين اختلسها بأن نفسه كانت نقياً طيب النشر. وردت عليه في هذه الدعابة البديعة «لا بأس عليك فأنا التي منحتك قبلة صديقة مخلصة».

ويشتد المرض والفقر بالفتاة. ويشتد الهيام والبؤس بالفيلسوف، وتزول بينهما الكلفة. وتكثر الزيارة عندها وعنده، ويعرض عليها خادمته لتعينها على الحياة. فتأبى. وتقضي الشتاء وحيدة عاملة لا يسليها عما تجد الا زيارات الفيلسوف لها وعطفه عليها. وقد عرضها على الطبيب فقدر لها مرضاً أخذ يعالجه وهو بعيد كل البعد عما كانت تجد. واشترك الفيلسوف في الأوبرا على فقره ليسلي صاحبته بالموسيقى من حين الى حين. ولكنه لم ينس الحب ولم يفكر في الأعراض عنه فهو مازال يلح على الفتاة ويتقاضاها هذه الصلة المادية التي تتوج ما بينهما من ائتلاف العقل والقلب وهي تأبى حتى إذا أثقل عليها فأسرف. كتبت اليه تدعن لما يريد. وهي تقول: إنك تطالب بأجر ما تبذل لي من ود ومعونة فلن أماطل في تأدية هذا الأجر. هنالك استحى الفيلسوف واستكبر فرفض هذا التسليم وأبى إلا صلة مصدرها الحب والرغبة.

وزارته ذات يوم وهي مكدودة قد أجهدها المرض، واشتدت بها الحمة فلما انتهت الى البيت استلقت على وسادة ونظر اليها هو وان في عينه لحبا لا حد له، وشهوة لا حد لها. وإذا هو يرى عينيها الزائغتين من الألم وخديها اللذين تورد هما الحمة فلا يرى إلا جمالا مغرياً وحسناً فاتنا. وهي مستلقية أمامه لا حول لها ولا طول. وهو قادر عليها: ولكنه ليس قادراً على نفسه. فهو يشتهي الى حد الهيام ولكن عقله ووقاره يأبيان عليه هذا الغصب. فتحل هذه الشهوة الحادة العنيفة الى حب وتور، فيه شيء كثير من جلال الدين. والمرض والبؤس يلحان على الفتاة. والحب والفقر يلحان على الفيلسوف واذا هي قد لزمت غرفتها، ولزمتها خادم الفيلسوف. وجاء

الطبيب فلم يشك فى أنها مسلولة مشرفة على الموت . وكثر تردد أمها عليها وكثر تردد الفيلسوف أيضاً . وكانت بين الأم والفيلسوف حول هذا الجسم الناحل وهذه النفس التى تتأهب لمفارقة الحياة ، خصومات مؤلمة ولكنها لا تخلو من فكاهة . فأما الأم فكانت أسيرة الأوضاع الاجتماعية ، أسيرة هذا الحب الذى يعطف المرأة على ابنتها . وأما الفيلسوف فكان أسير هذا الحب الفلسفى ، ولم يكن يتردد فى أن يعلن أنه وحده صاحب الأمر فى هذا البيت لانه الزوج الخالد للفتاة .

ولم لا ؟ لقد كان ينهض بكل ما تحتاج اليه ، ويعرف من تمريضها ما ظهر وما خفى . لقد كتبت اليه مرة تقول : ما أشد حاجتك الى الرحمة أيها العاشق التعس ، فلم تظفر من خليلتك إلا بشر مايظفر به الازواج . وكان مؤلماً جـــداً ، وباعثاً للابتسام أحياناً أن يرى الفيلسوف جاثياً أمام السرير وهو يصلى الى الفتاة فيدعوها أخته وزوجه وابنته . ويؤكد لها ويقسم ليعصمها من الموت ولأن عبثت الطبيعة بجسمها فليضمن هو لنفسها الخلود . ولم لا ؟ ألست أرق امرأة عرفتها الانسانية . لقد لقيت أرق عقل عرفته الانسانية ، فلن يكون للفناء عليك ولا على سلطان .

وساءت حال الفتاة ودعى القسيس ليهيأها لاستقبال الموت فلم تمانع هى ولم يمانع هو . وأقبل القسيس فأدى عمله والفيلسوف يراه ويسمع له ساخطا حتى اذا انصرف أقبل فانكر هذه العادة الدينية التى تنتزع المريض انتزاعاً من الحياة لتدفعه بين ذراعى الموت .

أقبل عذب الصوت رضى النفس حنون القلب فجثا الى السرير وحنى على الفتاة وأخذ يحدثها أحاديث عذبة كلها أمل وكلها رحمة . ثم انصرف وعاد فأذا الأسرة كلها مجتمعة واذا هم يأبون عليه أن يصل إلى المريضة . فثور ثائرته ويخرج عن طوره ويأبى أن ينصرف ويهم بأخراجهم جميعا لأن المريضة زوجه وخليلته وهى له وحده دونهم ، بذلك اعترفت له وعلى ذلك أقسمت له فيجب أن يخلى بينه وبينها . فأما الأم فتنكر وتبكى وتستخذى . وأما الأخ فيقبل على أستاذه منذرا . وأما الأب الشيخ فيقبل هادئا وقوراً يطلب الى الفيلسوف أن يدع المريضة لأهلها .

فانظر الى الفيلسوف وقد جثى أمام الشيخ ضارعاً مستعطفاً حتى رق له الشيخ فقال إنصرف الآن ولك علينا أن ندعوك اذا استيئسنا منها . خرج الفيلسوف فلزم داره فلما كان من غد جاءه الرسول فأقبل مسرعاً حتى انتهى الى البيت . فلما رأته الأسرة أنفرجت له وخلت بينه وبين غرفة الفتاة . فدخل وأغلق الباب من دونه وأرتجه فأحكم أرتاجه . وأقام ساعات طوالا لايخرج ولا يدخل عليه أحد ويستطيع الخيال أن يذهب كل مذهب فى تصور ماقال الفيلسوف للفتاة المحتضرة أو ماعمل أمام هذا الحب العظيم الذى كان الموت يغلبه عليه قليلا قليلا . فلما تقدم النهار ودنى المساء فتح الباب وخرج صامتا لايلوى على شىء . فاقام فى داره ولم يشهد الجنازة ولم يشيعها الى القبر . وماذا يعنيه من الجنازة ؟ لقد حاول أن يصل إلى هذا الجسم فلم يجد اليه سبيلا وحاول أن يصل إلى هذه النفس فلم تقاومه ولم تمتنع عليه ، وإنما اسرعت اليه فاقامت فى عقله وقلبه . لم تمت كلوتيلد وانما أودعته خير مافيها فهى اذا فى قلبه ، هى اذا تقاسمه حياته الذائلة حتى اذا انقضت هذه الحياة الموقوته امتزجت بنفسه فكانت منها نفس واحدة خالدة . عكف الفيلسوف فى داره على هذه الصورة يعبدها ويهيم بها وما هى إلا أن استحال حبه لكلوتيلد ديناً وضعت له التقاليد وألوان الصلوات والعبادات . وأغرب من هذا كله أن الحياة الظاهرة للفيلسوف لم تتغير . فدروسه كانت تلقى فى نظام ومجلاته كانت تقرأ فى نظام ورسائله كانت تقرأ ويرد عليها فى نظام أيضا .

ما أعجب أمر الانسان تراه ساذجا يسيرا وان شخصه لشديد التعقيد .

انظر مجلة العالمين التى صدرت فى ١٥ فبراير

الكتب

ضاق نطاق هذا العدد عن نشر باب الكتب وقد اجتمع لدينا طائفة كبيرة من المؤلفات الحديثة القيمة تستحق النظر فيها والاشادة بها والتعليق عليها . فنعتذر إلى حضرات المؤلفين والقراء من تأجيل ذلك إلى العدد المقبل .

العدد الأول من الرسالة

بقى لدينا مقدار قليل من الطبعة الثانية لهذا العدد . وهو يطلب رأساً من الادارة .

القصـــة المصرية

نشرنا فى هذا العدد جزءاً كبيراً من هذا البحث القيم وسننشر تتمته فى العدد المقبل .